الأغواط في مدونات العسكريين الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر

Laghouat in the blogs of the French military during the nineteenth century

د. حسان مغدوري [1*]

[1] جامعة زيان عاشور بالجلفة (الجزائر) .

تاريخ الاستلام: 31 ديسمبر 2020 ؛ **تاريخ المراجعة :** 04 أفريل 2021 ؛ **تاريخ القبول :** 31 ماي 2021

ملخص:

في ظل عدم كفاية الوثائق المحلية التي يمكن أن تخدمنا في إعادة إنتاج تاريخ بلدنا ، وخاصة في المناطق الجنوبية الكبيرة مثل الأغواط، تظل محفوظات الإدارة الاستعمارية مسارًا ممتازًا ، فهي مرآة العصر ، والأكثر من ذلك إنها تحتوي على كل ما تم جمعه من خلال شهادات الجنود والمترجمين والمسافرين ورجال العلم رجال الأدب، وكذلك جميع الكتابات مثل الملاحظات، ودفاتر اليوميات والتقارير، وأخيرًا المراسلات والتقارير التي يعود تاريخها إلى منتصف القرن التاسع عشر.

تكمن أهمية هذه الوثائق في أصالتها، لأن الوثيقة المختارة هي مجموعة من جزء من أرشيفات الخدمة التاريخية للدفاع في باريس، والتي تتضمن مجموعة متنوعة من البيانات من مختلف مجالات الحياة.

الوثيقة التي تناولناها للتو تمثل كتابة دقيقة للغاية عن تاريخ الأغواط، سواء كانت على أساس هذه المدينة، أو على أصول توطين السكان، وكذلك المراحل المختلفة التي عبرت مناطق الأغواط. بالطبع الحياة السياسية والاجتماعية والعادات والأخلاق وحتى الأسطورة الشعبية.

الكلمات المفتاحية: الأغواط؛ مناطق الجنوب؛ مدونات العسكريين الفرنسيين؛ سكان الصحراء.

Abstract:

In the insufficiency of local documentation that can serve us to reproduce the history of our country, especially in large southern localities such as Laghouat.

The archives of the colonial administration remain an excellent track, it is the mirror of the time, all the more so it contains everything that has been gathered through the testimonies of soldiers, interpreters, travelers, men of science, men of letters, as well as all the writings such as notes, diary notebooks, reports, finally correspondence and reports dating back to the mid-19th century

The importance of these documents lies in their originality, because the chosen document is a collection of part of the archives of the historical service of the defense of Paris, which includes a variety of data from different fields of life.

The document we have just dealt with represents a very meticulous writing on the history of Laghouat, whether it is on the foundation of this city, or on the origins of the settlement of the population, as well as the different stages that crossed the regions of Laghouat , of course political and social life, customs, manners and even popular legend.

Keywords: Laghouat ; Southern regions; Blogs of the French military; Desert dwellers.

*Corresponding author: e-mail: iruohga@gmail.com.

1- مقدمة:

يمثل الأرشيف منجما حيا لكم هائل من المعطيات التاريخية التي يمكن أن تؤرخ للفترات الغامضة من التاريخ الوطني في مختلف مجالات الحياة الأساسية، ولعل الاهتمام بالتاريخ المحلي في بلادنا ما يزال في بداية الطريق، ذلك أن فترة الاستعمار الفرنسي قد أتت على الأثر المكتوب، ووجهت البحوث التاريخية في إطار خدمة المشروع الاستعماري، الذي انطلق من نظرية الجزائر فرنسية، كما أن الكتابات التاريخية التي أنجزتها مدرسة التاريخ الاستعماري صيغت بالكيفية التي اعتبرت فيها جغرافيا الجزائر فراغا كان يجب تعميره، و تاريخا لا يعبر عن حقيقة الإنسان الذي وجد على الأرض، وراح رجل الاستعمار يبحث عن حل إشكالية أحقية الغالب باحتلال أرض المغلوب.

مثلت الأغواط بحكم موقعها الجغرافي، وأهميتها التاريخية، ومكانتها الحضارية وسمعتها الدينية، مركزا محوريا في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي في منطقة الجنوب الكبير، ولذلك فهي قد حازت على مكانة خاصة في اهتمامات وثائق العسكريين والسياسيين على حد سواء، فكان من الأهمية تقديم قراءة في المعطيات التاريخية التي وردت في كتابات هؤلاء، و إبراز مدى إمكانية استغلالها في إعادة جمع حيثيات تاريخ المنطقة خلال القرن التاسع عشر، وما هي خصائص الوجهة السياسية والأبعاد الإيديولوجية التي كانت تنطوي عليها مدونات هؤلاء.

2 - البدايات الأولى لتوثيق المعرفة بمنطقة الصحراء:

تشكل التقارير والمدونات والمراسلات العسكرية التي كتبت في منتصف القرن 19، منفذا للإطلالة على المرحلة التي سجلت نضج فكرة مشروع الاحتلال الشامل الذي اخذ يزحف باتجاه مناطق الصحراء، وقد لعب في هذا السياق مجموعة من المترجمين والعسكريين البارزين على غرار ليون روش (1) وماري مونج Marey Monge، في رصد وتدوين معلومات عن قبائل الصحراء، فمثلما اصطحب الأول الماريشال كلوزيل في حملته على المدية في سنة 1836 كمترجم عسكري تولى مهمة التواصل لجمع المعلومات على لسان جزائريين(2)، قام الثاني بإعداد ورقة عن احتلال قبائل أولاد نايل في 1844، وكان أول من صاغ مشروع تنظيم قبائل الصحراء الصغرى، كما كان وراء هندسة خطة التوسع نحو الأغواط في 1844، وجمع معطيات عن تجارتهم مع التل في حين دون رسالة عن التيجاني وتأثيره في منطقة عين ماضي، واعد خطة لغزو أولاد نايل في سنوات 1843 1846 ، ووضع تأملات عن الأسباب التي أدت إلى الانتفاضة وموقف قبائل الجنوب أثناءها، وحسم احتلال منطقتي دمد ومسعد في 1847 كما اقر تنظيم أولاد نايل وكتب رسالة عن التلي وبن عودة وبن يحيى والقادة الرئيسيين في الجنوب كما اعد ورقة عن قبائل جبل عمور وكتب عن تاريخ القبيلة الكبيرة للزناخرة في جنوب التيطري(3).

كان ماري مونج (Marey Monge) وراء تشكيل سارية الجنوب التي تكونت من وغيو مار (Guiomard) وليبار (Liebert) والتي عبدت الطريق أمام الجنرال يوسف (Yusuf) في قيادة الحملة ضد مدينة الأغواط سنة 1852، كما سمح إعداد الورقات وتصميم الخرائط والبيانات وجمع المدونات عن كافة الجوانب المتعلقة بالمناطق المستكشفة، في وضع إستراتيجية محكمة تقوم على إعداد خطة عمل تسمح بتنظيم قبائل الصحراء على النحو الذي يضمن إخضاع السكان والسيطرة على الأرض، ذلك أن المقاومات التي قادها سكان الصحراء قد كانت في أوجها، وكان هاجس فرنسا يستهدف تصفيتها و فتح أفاق جديدة أمام التوسع الاستعماري في الصحراء الكبرى.

كانت المقاومة التي قادها سكان الصحراء قد انطلقت من الجلفة في 14 و 15 افريل 1861 بقيادة سيدي موسى المعروف بالسي الطيب بوشندوقة مقدم طريقة الشيخ المختار، وتذكر التقارير العسكرية بان الشيخ قد جمع ما بين 50 إلى 60 محاربا وهاجم مركز الجلفة التي كانت جزءا من مقاطعة الأغواط وامتد تيار الثورة إلى كافة محيط المنطقة، فالغليان قد عم أوساط سكان محيط الأغواط ودفع الرائد دي سوني (De Sonis) إلى ترك المدينة خشية من ردة فعل السكان وقد تم على اثر ذلك إعدام ستة أشخاص من المقبوض عليهم، كما استدعى الحادث إنشاء لجنة من القادة السامين لمتابعة الموضوع (4).

لقد ألمت هذه الوثائق بمختلف تفاصيل حياة الإنسان وطبيعة المكان، وقد كانت تسعى من حيث المبدأ إلى بلورة صورة واضحة عن الواقع من الناحية السياسية والعسكرية، ولذلك فهي قد استنفذت جهدا مضنيا في البحث والتدقيق والاستشارة والمقارنة والمراجعة، ويتجلى اهتمامها من خلال المراسلات الاستعلامية والاستشارية التي كانت تصل إلى الجهات الوصية في الحكومة العامة وقيادة وزارة الحربية، بل أن درجة شغف التعمق في فهم الصحراء لم يستثن حتى رصد الحيثيات المتصلة بالأساطير والراويات الشعبية التي كانت تتردد في الأسواق كما سيأتي عرضه لاحقا.

كان عمل اللجنة الإفريقية التي زارت الجزائر سنة 1832، يمثل أول تجربة صريحة أعدت قراءة مفصلة عن تاريخ الجزائر وعن جغرافيتها ونمط تركيبتها البشرية وعلاقاتها الاجتماعية، كما كانت مذكرة العقيد دوفيفي (Duvivier) عن الجزائر في سنة 1833(5) تحاول فهم الواقع في كافة مناحي الحياة، غير أن دوفيفي يكون قد وضع منهجالقراءة موجهة تقوم على عرض صورة عن مجتمع جزائري مفكك وغير متجانس، ويشكل عناصر مختلفة من أتراك وكراغلة وعرب وموريسكيين وقبايل ويهود، و أسس لفلسفة سياسية وعسكرية نسج عليها كل من جاء من بعده.

استحكم غزو الصحراء أكثر بعد السيطرة على منطقة بوغار بمنطقة المدية، وبداية الاتصال برؤساء القبائل والفرق، ثم بإقامة أول برج في منطقة الجلفة سنة 1845، لينتهي به المطاف بالزحف على منطقة الأغواط التي كان الأمير عبد القادر يتوخى جعلها قاعدة إستراتيجية في تعبئة سكان الجنوب ومقاومة فرنسا.

3- التعريف بالوثيقة محل الدراسة:

وقع اختياري على عينة من وثائق أرشيف ما وراء البحار في اكس –إن –بروفانس (ARCHIVES D'AIX EN PROVENCE) بفرنسا، والتي يعود تاريخها إلى سنة 1865، وهي تحمل عنوان تاريخ محيط منطقة الأغواط(6)، وقد أخذت شكل دراسة مفصلة بطريقة منهجية مركزة، تضم ملفين متكاملين، حيث يتكون الملف الأول من ستة أقسام، ويعرض بطريقة متسلسلة موضوعات، في مقدمات عامة عن الجيولوجيا وعن المياه وفي الجيولوجيا الفيزيائية وفي الطرقات ويقدم إحصائيات عامة عن السكان وعن خصائص الجغرافيا السياسية وعن تاريخ مقاطعة الأغواط التي تناولها بالعرض حسب كل ناحية، إذ خصص الجزء الأول لسكان بن ميزاب، وفي الجزء الثاني لتاريخ أولاد نايل، وفي الجزء الثالث للصحاري، وفي الجزء الرابع للعبازيز، وفي الجزء الخامس للمخاليف وتاريخهم، وفي الجزء السادس للأرباع وتاريخهم، وفي الجزء السابع للحرازلية وتاريخهم، وفي الجزء الثامن للأولاد سيدي عطاالله وتاريخهم، وفي الجزء التاسع للأغواط ونبذة عن تاريخها، واستكمل القسم الثاني من الملف، عرضا عن محيط الأغواط وملحقة الجلفة، وعن مناطق وتاريخ كل من إقليم العساقية، وقصر الحيران، والحويطة، وتاجموت، وعين ماضي، ومسعد، وبريان، وغرداية، وبني يزغن، والغرارة، ومليكة، وبونورة، والعطف، وختم الملف بذكر أسماء وإحصاءات فروع القبائل التي تشكل تركيبة سكان الإقليم.

ونظرا لكثرة المادة في هذه الملفات فقد ركزت على ما تعلق منها بمنطقة الأغواط وحاولت التقيد بالتسلسل المنهجي والعرض المعرفي على ذمة المدونة حفاظا على النظرة المعتمدة وفق ما يأتي:

1.3- مدينة الأغواط:

هي قصر من قصور محيط إقليم المدية، وهي تقع على بعد 352 كلم من مركز المدينة وقد كانت تمثل المقر الرئيس للمحيط الصحراوي، وأكثر المراكز المتقدمة في جنوب عمالة الجزائر، يحدها من الشمال المخاليف وأقاليم الأرباع، ومن الشرق العساقية وأولاد سيدي عطاالله، ومن الغرب المخاليف ومن الجنوب المعامرة، وتنقسم الأغواط إلى ناحيتين رئيسيتين تسكنها فرقتين هما الأحلاف و وأولاد سرغين، بحيث تضم الأولى كل من المغاربة والحجاج وأولاد خريق والحران وأولاد عبد الله، بينما تضم فرقة أولاد سرغين كل من أولاد بلعيز وأولاد سرغين وأولاد أيوب ويصل عدد السكان في المنطقة إلى 2500 ساكن بما في ذلك بني ميزاب وعشرات من العائلات اليهودية .

2.3- ثروات الأغواط:

تضم الأغواط 204 منزلا و20 ثور و850 جمل و5650 خروف و4832 ماعز و 16 حصان و4 يغال و114 حمار و3391 بستان التي تتلقى مياهها من وادي مزي عبر سد يؤدي بالمياه إلى الواحات .

كانت معظم قبائل محيط الأغواط تأتي في الماضي إلى المدينة لتخزين محصولها من الحبوب بمجرد اعتزامها التوجه نحو الجنوب. كما لم تكن المدينة عند احتلالها من جيش الاحتلال سنة 1852، سوى كوكبة من منازل مشيدة من الطوب المجفف بالشمس، ولم تكن تحظى إلا بعناية قليلة، فقد كانت أشبه ما يكون بآثار مسكونة، فهذا ما يمكن ملاحظته في قصور الصحراء من الوهلة الأولى، إذ كانت كلها مبنية بنفس المواد، وكانت الأسوار تحمل اللون الرمادي الباهت، ما يجعل هذه السكنات تبدو وكأنها تأخذ شبها متماثلا فيما بينها .

كان ثمة برجين للمراقبة يتحكمان في تامين مدينة الأغواط، وقد كانت تعلوهما شرفتين، غير أن الجيش قد دمرهما بعد احتلال المدينة، وقد كانت الأزقة ضيقة ومتعرجة، كما كانت تفتقر للنظافة، بحيث لم يكن ممكنا للأوروبيين السكن في إحيائها، بل انه كان مستحيلا مجرد التفكير ببناء مؤسسات في هذا البلد الضائع، الذي اعترضنا فيه مصاعب كثيرة، فقد كان يتوجب علينا عمل الكثير من اجل تذليل العقبات، لكننا أدركنا اليوم بان تلك المخاوف كان مبالغا فيها، وثبتبان الأغواط تمثل اليوم، أول أحسن مراكزنا المتقدمة في الجنوب، كما أن الأحداث الحالية كشفت بوضوح عن أهمية هذا المكان(7).

لقد تغيرت ملامح المدينة بشكل كامل، حيث أعيد تهيئة الطرقات الرئيسية، كما طليت معظم المساكن بالاسمنت، لقد فوجئنا عند دخولنا من باب الشمال عبر طريق كانت محاطة بالأقواس، وكانت تفضي في نهايتها إلى ساحة مستطيلة مزينة بمنازل، تأخذ فيها الأشكال صورة تذكارية مهيبة، في بلد كان يبدو وكأنه خال من كل ثروة.

إن الأسواق والمؤسسات العمومية مثل الحمامات، بدأت تأخذ طريقها نحو الازدهار، بفضل استقدام مختلف الحرفيين من مناطق متعددة، إذ وفد حرفيون من جبل عمور لأجل حياكة السجاد المصنوع بالصوف، والذي كان يحظى بطلب كبير، وكذا الجلال (وهي أغطية الأحصنة) والتي نالت شهرة كبيرة في الماضي، وتم استقدام حرفيين آخرين من الجزائر العاصمة ومن تونس، وقد تخصص هؤلاء في حرفة الطلاء الضروري للجاربي، وهي الأغطية التي كانت تحيكها نساء بني الأغواط والتي أخذت صناعتها انتعاشا جديدا وهي ترتقي اليوم باتجاه النمو.

لقد انشأ سكان ميزاب بالمقابل صناعة خزفية، وقد كانت مرغوبة على نطاق واسع، وهي مرشحة لتطور واسع في المستقبل، وقد ساهم تشجيع هذه الصناعات إلى حد كبير في استقطاب حرفيين جدد، وتتوفر المدينة اليوم على مصنع جلود يوشك على الانطلاق، وهو معد لإنتاج الفيلالي الذي كانت جودته تضاهي وتنافس مثيله في المغرب الأقصى.

إن السلم الذي يتمتع به السكان حاليا لم يكن أبدا ممكنا في الماضي، حيث ارتفعت البناءات من كل صوب، وانتعشت زراعة البساتين التي بيع معظمها للملاك الذين انتزعت منهم ملكياتهم في الماضي، كما تحسنت قنوات مياه الشرب في المدينة، والسقي في البساتين، وهاهي الأشغال المستمرة تقترب من بناء سد منيع

سيسمح برفع منسوب احتياطي مياه وادي مزي بشكل معتبر، كما زاد تامين الطرقات في استقطاب عدد كبير من سكان بني ميزاب والعرب الذين بعثوا حركية ملفتة في المدينة، والتي ستجني محاسن ما جلبوه إلى المكان، بل سيضمن ذلك، أفاقا وأهمية من كل أي وقت مضى، والتي طالما استطاعت المدينة المحافظة عليها منذ تأسيسها.

تعتبر صناعة النسيج (الجربي) واحدة من الصناعات الرئيسية الأكثر شهرة لبني الأغواط، كما يقمن النساء بحياكة الحياك، والبرنوس، والقندورة، وأشياء أخرى من الصوف، والتي كانت رائجة، وكانت تستبدل بالحبوب في أسواق التل .

لقد كانت منتجات البساتين تمثل موردا هاما، وكانت توفر الخضر بكميات معتبرة، مثل الجزر واللفت والبصل والبطيخ والبذنجان وغيرها، كما كانت أشجار الفواكه تشكل غابة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إذ كان الاخضرار يكسوها من الأعلى وكانت في الأسفل محشوة بالجريب والنخيل والمشمش والخوخ والتين والسفرجل ولا سيما أشجار الرمان التي كانت بكميات معتبرة ولم يكن أحدا من السكان يستثنى نصيبه منها، وكانت أشجار الكروم تنمو في شكل سلسلة تلتف على الأشجار من واحدة إلى أخرى.

لقد أعطى إحصاء أشجار الفاكهة حوالي 2600 شجرة مشمش، و6600 شجرة تين، و 1300 شجرة رمان، و2400 شجرة كروم، و100 شجرة تفاح، وكان بنو الأغواط يصدرون كميات معتبرة من الهرماس (وهو عبارة عن مشمش مجفف تحت أشعة الشمس ويستعمل في غذاء العرب على نطاق واسع) وكان يسوق في منطقة التل .

كان السكان يمنحون أكبر اهتمامهم لزراعة النخيل على الرغم من تواضع نوعيته التي كانت أقل جودة، ولم يكن ممكنا الاحتفاظ بها لوقت طويل، لذلك كان التمر يستعمل في مختلف أنواع الأطعمة، كما كان إنتاجه الوفير من وقت غالى أخر يمنح فرصة للسكان لشراء المقتنيات، ويمنحهم أفضلية تؤهلهم لاستفادة من جلب الصوف والزبدة التي يحتاجونها.

كانت الواحة تتوفر على 20.000 نخلة منتجة، وملقحة بـ 500 ذكر، وبينما يفصل التقرير في الطريقة التي كان يستعملها بنو الأغواط في وقت التلقيح(8)، يعرج على ذكر وقت جني التمر الذي يبدأ في النضج منذ شهر أكتوبر، حيث تكون الأمطار في هذا الفصل مهلكة لمحصول جيد، إذ كان المثل الشعبي الشائع عند الأهالي يقول: « يجب أن تكون أرجل النخلة في الأرض ورأسها إلى الشمس » .

كانت الرياح الشرقية والشمالية خلال شهر مارس وأفريل في فترة اللقاح مرعبة، وكانت النخيل التي نمت بفعل الزرع تمثل أحسن الأنواع، بينما لم تكن المتوسطة منها تعطي سوى فاكهة رديئة، بل يمكن اعتبارها غير منتجة، وعندما يوضع الغرس في الأرض، فيجب العناية به جيدا في السقي اليومي خلال شهر ونصف على

الأقل، ثم يتعين سقيه بعد ذلك مرة واحدة كل يومين خلال نفس فترة السقي الأولى، وبعد ذلك مرة في الأسبوع أثناء فصل الصيف، و كل 20 يوما في فصل الشتاء، لأن ذلك كان يمثل الشرط الضروري لتكاثر جيد.

يبدأ النخيل في الإنتاج ابتداء من السن 8 إلى 10 سنوات، ويأخذ أطوالا بـ 2 متر تقريبا، وقد كانت حزمة الأغصان تقلم في كل سنة، بحيث كان من الممكن عدها فوق الجذع، ويمكن معرفة عمر النخلة عندما تصبح مكشوفة، بينما يمكن للنخيل أن يعيش إلى 200 سنة ويزيد، لكننا نادرا ما نجده يتجاوز 100 سنة، ذلك أن إنتاج النخلة بعد هذا السن لا يكون ذا قيمة، لذلك يتم قطعها لاستعمالها كحطب لسقف المنازل، ومع أن هذه الجذوع غير جيدة إلا أنها كانت مفيدة لبلد لم يكن يتوفر على موارد بديلة.

هناك بعض النخيل التي تنتج 20 نوعا من التمور، غير أن المتوسطة كانت تنتج ما بين 8 إلى 10 أنواع للشجرة الواحدة في أحسن المواسم، وبمعدل إنتاج يتراوح ما بين 6 إلى 10 كلغ، واستنادا لهذه الأرقام، كان يمكن حساب كميات الإنتاج التي تستخلصها الواحة.

كان شراب اللقمي يستخرج من نسغ النخيل، وقد كان مشتهى عند العرب، بينما كان يزخرف من يأخذ قيمة فاخرة منه قصور الأوروبيين باحتشام، وكان يكفي قطع رأس النخلة للحصول على شراب اللقمي، مع العناية بوضع شق في القلب، ثم يوضع الإناء في أسفل مكان التقطير، حيث يبدأ الشراب في الانسياب ليصل إلى 10 لتر كل صباح، وكان يمكن الحصول على الكمية المطلوبة خلال شهرين، شريطة تبريد رأس النخلة كل يوم، وهذا ما كان يمنع الشق من الانغلاق ومن الجفاف، غير أن هذه العملية، كانت مضرة للنخيل إذا استمرت ولم تحظ بالعناية اللازمة، بينما إذا كانت محدودة في الزمن، فإنها تقدم أحسن النتائج، وتجدد حياة الأشجار المريضة، وحينما كان يراد قطع انسياب الشراب، كان يتم غلق قلب الشق بالرمال المبللة، وكان يمكن استهلاك قلب النخلة في المقابل، فمذاقه كان يقترب من القسطل أو قل من البطاطا الطازجة.

كان سكان الأغواط يعرفون كمية كبيرة من أنواع التمور، بحيث يستحيل إعطاء قائمة عن أسمائها التي تختلف من واحة إلى أخرى ، بحيث لم يكن ممكنا إحصائها أحيانا حتى في المنطقة الواحدة، وكان يوجد بالأغواط 15 نوعا فقط، و لم تكن من الأنواع الجيدة، بحيث لم تكن تتوفر على نوع دقلة نور إلا بكميات قليلة، ذلك أنها كانت مطلوبة بكثرة بحكم جودتها وإمكانية تخزينها وكانت توجد بالمقابل أنواع مثل (التوجات) و(التيزاوت) بكثرة، ومع أنها كانت تمثل أقل قيمة من الأولى، لكنها كانت مع ذلك جيدة، خاصة حينما كانت تستهلك طازجة في وقتها، وعلى غرار بقية كل المناطق الأهلة في الجنوب، فان نتائج المحاصيل الزراعية في نواحي الأغواط كانت تبدو هزيلة بفعل تأثير شروط الزراعة، إذ لم تكن تقدم سوى نتائج ضعيفة، وبالرغم من ذلك، فانه كان يمكن تحسين ذلك نسبيا.

3.3- خصائص سكان الأغواط:

كانت البلادة والخمول تمثلان الصفة الأساسية للإنسان الأغواطي، فهو قليل النشاط ويجنح كثيرا إلى الخمول، وإذا جمع مقدارا من المال فان ذلك كان يعود بالأساس إلى عمل النساء في البيوت على العموم، فهن وخارج الأشغال المنزلية ، كن يعتكفن في نسج مختلف المنسوجات ، واللافت أن عدد النساء في الأغواط، كان يمثل ضعف عددهن مقابل ما كان عند العرب في الجهات الأخرى، وكانت البستنة هي الشغل الوحيد الذي يتعاطاه سكان المدينة ، بحكم أنها لم تكن تستدعي جهدا كبيرا .

لقد كانت ضيافة بني الأغواط مضرب المثل في الماضي، وتنبع من صفاء طبيعي وإنساني، فقد كانوا يمنحون اللجوء لكل الناس، بحيث كان الأجنبي مرغوبا في مدينتهم، وكان يضمن الحصول على المأوى عندهم، غير أن الاحتكاك مع الأوروبيين اخذ مثلما هو الحال في كل مكان تعديلات على طريقة التعامل معنا، ولا ننتظر أن يكون هذا الأمر بخلاف ذلك، نظرا لاختلاف نمط معيشتنا.

كانت تقاليد الأغواط تتسم بالصفاء، فالمرأة التي كانت قد ثبتت في حقها الخيانة، سرعان ما كانت تطرد من المدينة ولا يمكنها العودة إليها أبدا، كما كانت كل قصور الصحراء، تعرف قدوم بعض فتيات أولاد نايل لنصب خيامهن على أبواب المدينة (9).

لقد كان ارتفاع الحرارة بالأغواط في البداية، يمثل احد ابرز العوائق التي كانت تعترضنا في المدينة، خاصة حينما كنا نحاول مواجهة درجاتها المحرقة، لكن التجربة بددت مخاوفنا بالرغم من أن الحرارة كانت تصل أحيانا إلى حوالي 45 درجة تحت الظل.

كانت طبيعة الأراضي الرملية التي تحيط بالمدينة سببا في القضاء على كل جو نتن، وقد أوجدت هذه الوضعية في النهاية، أكثر الأماكن نظافة في مراكزنا المتقدمة، كما كان يوجد على مقربة من المدينة بعض الأخشاب التي كانت توفر الطاقة الضرورية لاستهلاك السكان.

إن ثمة مسالة في غاية الأهمية، والتي لا يمكن إغفالها في مناطق الجنوب، والتي ستدفعنا نحو الرفع من موارد البلد، إذ كان يوجد على بعد 16 إلى الغرب من حواف وادي مزي بمكان يسمى رشاق، مساحات واسعة من الأراضي المكسوة بنبات الطرفة الجيدة، كما كان يوجد بنفس المسافة تقريبا إلى ناحية الشرق، خشب الرق (reg)، والذي لم يكن يترك شيئا للأول ، كما كنا نصادف عدد كثير من الضايات المزخرفة بالبطم في تلك المناطق، والذي كان يوفر بدوره أرقى نوعية لخشب التدفئة.

4.3- نبذة تاريخية عن الأغواط:

كانت بداية استقرار السكان الأوائل للأغواط بالقرب من وادي جدي، والتي مهدت لتأسيس مدينة الأغواط لاحقا، وتعود المدينة إلى فترة ضاربة في أعماق التاريخ البعيد، ولا يمكن للرواية التقليدية أن تقدم لنا إلا صورة بشكل عام وفضفاض، غير أن القريب من المنطق في هذا الموضوع، نجده في الحروب الطاحنة التي عرفتها منطقة غورارة، والتي دفعت بهجرة عارمة لأولاد سالم نحو الشرق، والذين انتهى بهم المطاف إلى نصب خيامهم بالقرب من وادي جدي، حيث التقوا بفرقة من بني الأغواط كسال، (فبدارة) كانت قد شيدت هناك بعض الملاجئ وكانت تعكف على رعي أغنامها بالمكان .

قدم إلى هذه الأماكن لاحقا، كل من أولاد سكحال وأولاد زيد من منطقة الزاب، وقد استقروا في نفس المكان الذي بنت فيه برفقة العناصر الأولى الوافدة قرية، أخذت اسم بن بوطة .

لقد وفدت على هذا المكان عدة هجرات متعاقبة من مختلف البلاد، كانت قد ظلت بها الطريق في وقت ما، وقد وجدت في النهاية الوضعية المناسبة ووفرة المياه، لتستقر غير بعيد وتؤسس عدة قرى شكلت مجموعة جمعتها الصداقة، ومكنتها من الصمود في النهاية ولو بشكل ضعيف أمام غزوات البدو الرحل، حيث كان عدد كثير من العصابات تتردد من وقت إلى أخر للإغارة على هذا الجزء من الصحراء .

لقد شكلت فرقة أولاد بوراس من الدواودة (بسكرة) قرية بومندالة، كما أسس أولاد بوزيان من حميان الغرابة نجال وسيدي ميمون، اما بدلله والقصبة وبن شطوح، فقد بنيت على أيدي أفراد رحلوا من منطقة الزاب.

في هذه التجمعات السكنية والقروية المنتشرة على مساحة تقدر من 4 الى 5 كلم . تشكلت الأغواط فيما بعد، ومنها أخذت أصل تسميتها، فكلمة غوث عند عرب الصحراء، كانت تستعمل للدلالة على مسكن محاط ببستان، وهو ما كان يعني في الجمع اغواث، فالواحة الحالية هي ابعد ما يكون في الشبه عما كانت عليه في الماضي، فبعض أشجار النخيل التي زرعها بعضهم كانت توفر إقامة دائمة ومستمرة، وكانت بعض البساتين الهزيلة في شكل مبعثر قد زرعها الرعاة، لتمثل أول مورد لهذه القرى، لكن هذه الحسنة قد تحولت إلى ضارة متعبة، حيث ولدت حالة من الخصومات المستمرة، و لم تكن تلك القبائل من شدة الخوف تفكر في الاجتماع، ولو تعلق الأمر برد هجمات الأعداء، فعرب يوسف الذين يسكنون قصر بدللة، اضطروا بعد عدد من الخصومات المجهدة إلى مغادرة البلد في النهاية، وانتقلوا لتأسيس (تجموت) في 1666 على بعد 32 كلم في الشمال الغربي عند صعود وادي مزي.

5.3- الأغواط في مضمون المخيلة الجماعية:

تحمل أسطورة قصة مفادها، إن مرابطا يدعى سيدس ناصر، كان يقيم في تلك الحقبة بقصر بن بوطة، وقد كان يحظى بسمعة كبيرة، فهذا الرجل الطاهر كان يتمتع بشهرة واسعة في البلد، وكان الجميع يرجون منه أقل بركة لضمان قضاء حاجاتهم، فبفضل عباداته وصلواته ودعواته المستجابة، كان كل من يتردد عليه ينال من بركته، إذ سرعان ما كانت المرأة العاقر تلاحظ تكاثر عدد ابناءها في وقت قصير، وسرعان ما كان المريض يشفى ويستعد عافيته، فحتى الزوج الخائن كان يعود لرشده بفضل دعواته ويستعيد القيام بواجباته، وهكذا كان الناس بالمحصلة، يرجون بركته المعززة بعناية الله.

كان بن شطاح من سكان القصر وواحدا من أبناء رئيس القصبة، لكنه لم ينل قط رضا سيدي ناصر رغم كل المحاولات التي استنفذها، وكان قد أغرم ببنت سيدي ناصر، التي كانت تتمتع بجمال فائق، وكانت تمثل عزة أبيها بين الناس، غير أن أباها كان قد عقد قرانها بشاب من قصر بن بوطة، وهو الأمر الذي أوقف أحلام بن شطاح الذي تهاوت كل محاولاته وطموحه في كسب ود الشيخ والوصول إلى معشوقته، وبعدما انسد طريق حلمه، قرر برفقة من أصدقائه، مداهمة العروسين في ليلة من أيام الزفاف الأولى، فقتل العريس ثم اختطف العروس ليختلي بها، لكنه سرعان ما تقفو أثره رجال الشيخ ومريدوه، ولما تيقن بحصارهم له ولم يستطع الفرار، أقدم على ذبح العروس لتي لم ينلها إلا وقتا قصيرا وانتحر فوق جثتها.

أفقد الخبر صواب الشيخ وضاع منه كل رجاء، وحمل حفنة من الرمل، ثم نفخ فيها في الهواء، ودعا قائلا: " اللهم شتت سكان بن شطاح كما شتت الريح ذرات الرمال هذه ".

هكذا أضحى سكان قصر بن بوطة في اليوم الموالي عبارة عن صحراء قاحلة، حيث هبت عاصفة وقذفت بهم على بعد 283 مكان، واستيقظوا ليجدوا أنفسهم في المكان الذي بنيت فيه حاليا مدينة غدامس، وهناك التقوا بعض العائلات التي استقرت قبلهم بقليل والتي كانت قد فرت من فزان بسبب اقترافها لجريمة قتل في حق احد إخوتها، ولما سئل سكان بن شطاح عن بلادهم التي قدموا منها، ومتى حطوا بجوارهم، أجابوا قائلين: " لقد قدمنا من قصبة بن شطاح حينما لم نكن قد انتهينا بعد من غذاءنا بالأمس ". ومن هذه القصة ظهرت مدينة غدامس التي تأسست بالشراكة بين هذه العائلات الأولى التي استقرت المكان المعروف حاليا بغدامس.

هكذا إذن، بقيت أربع قرى بواد مزي والتي استمرت في العيش في جو مشحون بالصراع، وانتهى بها المطاف إلى الاقتتال فيما بينها.

6.3- أثر قدوم المرابط الحاج عيسى إلى الأغواط:

قدم المرابط الحاج عيسى للإستقرار بقصر بن بوطة في حدود 1698، ومازال قبر الشيخ فوق الربوة الغربية للأغواط ، حيث سبق وان حطت بهذا المكان سرية المدفعية التي فتحت ممرا لعبور الفرنسيين سنة 1852 .

ولد الشيخ الحاج عيسى سنة 1668 بتلمسان وتوفي بالأغواط سنة 1737، وهو الرجل الذي كان له أكبر تأثير على مستقبل الأغواط، فبفضل تجربته وعلمه اكتسب مكانة هامة في المنطقة .

تعود أصول الحاج عيسى إلى إحدى العائلات النبيلة بتلمسان، فكان أبوه يدعى عيسى ابن إبراهيم وكانت أمه تسمى محبوبة بنت سي الحاج بوحفص، وهي إحدى الشخصيات الاعتبارية لقبيلة أولاد الشيخ، وكان الحاج عيسى قد قضى في كنف هذه القبيلة عدة سنوات، وفيها ظهرت استعداداته للحياة الدينية .

ترك الحاج عيسى تلمسان في حدود 1694، ومر بوهران ليقيم بعض الوقت عند قبائل حرار، ومن هناك قدم ليستقر بصفة نهائية في قصر بن بوطة، وقد مكنته معرفته وعطفه خلال فترة وجيزة، من التأثير الكبير في سكان القصور وفي بقية العرب المجاورين لهم .

كان الشيخ عيسى شخصية مهابة ومحترمة في القرية التي سكنها، بل إنه منحها أفضلية لا طالما اشتهرت القرية بجزء منها في السابق، بفضل ما كانت تتمتع به من عدد السكان الكبير وبموقعها الذي كان يتوسط بقية القصور.

لقد أثارت حصيلة النتائج التي حققها الحاج عيسى في قصر بن بوطة غيرة القصور المجاورة، لكنها كانت تثق بشكل قطعي في عدل وفي النية الحسنة للشيخ الذي طالما عبر عنها دائما، فقدمت إليه مجتمعة لتطلب منه الحماية والنصح، فأشار عليهم بان الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من أن يكونوا في منأى عن ابتزاز العرب لهم، هو توحدهم وبنائهم لمركز فريد قادر على المقاومة، وهكذا أثرت كلمات الشيخ المباركة ونصائحه التي أملاها لهم بدافع الحذر، في قدوم سكان القصور الذين اجتمعوا بجوار قصر بن بوطة .

يرجح أن يكون التأسيس الفعلي لمدينة الأغواط في حدود 1700 م، وبالمقابل عرفت الفترة مطاردة قبيلة فرت من إقليمها بمنطقة الزاب بسبب خيانة أولاد جلال، وهاجرت نحو الأغواط لتحط باتجاه الغرب، كما قام أولاد يعقوب بمطاردة الزناخرة الذين استقروا في الإقليم الذين استوطنوه فيما يعرف آنذاك بمحيط بوغار. والظاهر أن هذه القبيلة كانت تنحدر من الأربع.

لقد عرفت المدينة الجديدة عدة هزات ومصاعب قبل أن تعرف الظهور بشكلها القوي والمنظم ولا يمكن إغفال دور الشيخ الحاج عيسى الذي مكنها من الصمود وحماها من غزوات أعدائها.

بدأت تنمو مدينة العسافية على بعد ثلاث إلى أربع أماكن إلى الغرب من مدينة الأغواط بعدما تعرضت في الماضي إلى التخريب وهجرة أهلها، وهاهي اليوم تعرف عودة سكانها القدامى لتعميرها من جديد، وهي تنظر اليوم بنوع من الغيظ إلى التطور والنمو الذي اخذ مكانته من حولها وعلى حسابها، فغيرتها قد ثارت مع النجاحات الأولى التي حققها بنو الأغواط ، لذلك أخذت نيتها قناع الحقد الشرس.

عرفت هاتين المدينتين المتجاورتين عدة حروب دموية في الماضي، وتكبد فيها بنو الأغواط أثار حروب مروعة، وإذا اعتقدنا في الرواية المتواترة، فإن سكان الأغواط كانوا قد طلبوا الحماية من الحاج عيسى ليخلصهم من جار خطير، ووعدوه بمبلغ كبير في حال نجاحهم، فلم يكن المرابط قادرا على رد طلب من سبق وان تبناهم، فدعا لهم في صلواته، وإذا بعاصفة هوجاء استمرت عدة أيام، وقلبت الديار وحطمت البساتين وقضت على هذا الخصم المزعج، لكن قيمة المال المعهودة للشيخ لم تصله، ومر الخطر ولم تعد العسافية قادرة على النهوض من هذا الإخفاق الحاد.

لم يستطع الحاج عيسى كتم غيظه فقال: « يا بني الأغواط، لقد أردتم مني ارتكاب المعصية، ولكنكم وقعتم فيها لوحدكم، لقد حطمتم الخير الذي كان يوحدكم، ومع أنني اسكن بينكم، فانه قد وصلت غالى الحد الذي اطلب فيه مصيبتكم، وأرجو لكم الشر بعد كل هذا الخير الذي طلبته أن يكون لكم .

4- النتائج ومناقشتها:

على غرار التقارير التي كتبها معظم العسكريين عن منطقة الصحراء، فان هذه الوثيقة، تقدم قراءة للمجتمع الجزائري وفق مقاربة عنصرية، تقوم على النظرة غير المتجانسة والمتناقضة للعناصر الإثنية التي تكوّن النسيج الاجتماعي، ويبدو هذا الطرح متناغما مع مشروع الاحتلال الذي كان يستثمر في هذه التناقضات، وكان يعمق الانقسام بين القبائل وبين العروش، بل أن جميع الخطط التنظيمية التي اعتمدها الاحتلال في مناطق الجنوب، استندت إلى هذا المعيار، ويعكس التقرير مكر رجل الاستعمار الذي تنبه للأساطير الشعبية، التي تحمل الضغائن والأحقاد، والتي تكرس الخصومات وتبقي النزاعات وتستذكر الخيانات التي طبعت العلاقات بين القبائل، فهي في مجملها تستعرض أفعال المكائد والغدر وتؤصل للعنة التي حلّت واستحقتها تلك الأقوام، غير أن التقرير مع ذلك يعطينا معلومات مفصلة عن جوانب جغرافية وثقافية مهمة ويعكس شغف الاهتمام بكافة الحيثيات التي تتعلق بالوضع الحضاري للمجتمع الجزائري في مجال الثروة والنشاط وفي مجال الفن والإبداع.

5- الخلاصة:

تناول المقال عينة من وثيقة أرشيفية لعسكري فرنسي عن منطقة الأغواط سنة 1863 في إطار دراسة مفصلة عن الجغرافيا والتاريخ وعن حضارة المنطقة غير أنها موجهة في إطار البحث عن مواطن الضعف والقوة بما يخدم مشروع الاحتلال والتمكين للسيطرة الاستعمارية ويستكشف المقال مكر رجل الاستعمار في جمع معطيات صحيحة عن الواقع غير أن توظيفها لا يخلو من المخاطر ومع ذلك فان الوثيقة تسد حالة الفراغ التي تعانيها المصادر المحلية في الموضوع ويبقي التنقيب في مدونات العسكريين مسلكا مهما في بناء التراكم لإعادة كتابة التاريخ.

- الهوامش:

1- ساعدت المعرفة العميقة للغة العربية لبعض المغامرين الأوروبيين من فهم ذهنيات وعادات المسلمين، ومثل ليون روش المولود بفرنسا (1809 وتوفي 1901) النموذج الأبرز، والذي وضع خدماته مع قدوم اللجنة الإفريقية الأولى سنة 1833 والتي كانت مكلفة ببحث أحوال الجزائر وتقديم تقرير للحكومة العامة، وقد تكفل ليون روش بمهمة الترجمة، بل عين ترجمانا محلفا للجنة، وبات اكبر مصدر للمعلومة عن عادات وتقاليد وخصوصيات المقاومة سيما حينما استخلصه الأمير عبد القادر بعد معاهدة التافنة. انظر:

- يوسف مناصرية مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847 المؤسسة الوطنية للكتاب 3.شارع زيروت يوسف الجزائر 1990 ص13-16.

2- نفسه ص16.

3- Archives Aix-en-Provence Algérie GGA G1 -10h78.Note Sur Les Larbaas Et Note Sur Les Ouled Nayel Ouled Aissa.

4- Archives D'Aix En Provence Algérie GGA 16 H 1 De La Correspondance Générale Et Des Operations Militaires. Attaque Du Village De Djelfa Par Des Arabes.

5- Service Historique De La Défense GR1h229 ; mémoire de m Duvivier 1ere partie.

6- . ARCHIVES D'AIX EN PROVENCE ALGERIE GGA 10h/78 ; Historique Du Cercle De Laghouat .

7- وصف ماري مونج في تقريره عن الأغواط، بما يلي: إكتسبت مدينة الأغواط بفضل التجارة والصناعة تأثيرا كبيرا على النحو الذي كانت قد شهدته جنوة والبندقية وفلورنسة، فالميدشيين الذين انتهوا بالسيطرة على فلورنس، كانوا تجارا قبل كل شيء ومنحوا الريادة لفلورنس. انظر:

Archives De Aix –En Provence Gouvernement Général De l'Algérie , 10h/78 .Armée d'Algérie ,Province d'Alger , Subdivision De Médéa ,Année 1846.47,48 Renseignement Historique Et Géographique 1- Historique Des Oulad Nayls (M,Le Général Marey) Organisation De Cette Tribus. Note Sur Les Oulad Nails Et L'organisation A Leur Donner.

8- إليكم الطريقة التي يستعملها بنو الأغواط لتسهيل للجمع بين الجنسين في وقت الإزهار التي كانت في شهر مارس يحتوي الغلاف على نوع النخلة الأنثى التي تبدأ في الغوص ويشرع في إدخال غصن إزهار ذكر يحتوي على غبار ملقح في المكان المفتوح ويتم إلصاقه بطريقة بحيث لا يمكن لأحد إسقاطه. انظر الملحق رقم 1 من المؤلف:

Archives Aix-en-Provence Algérie GGA G1 -10h.88 Note sur ouled nayel.1936

9- Marey Monge ; expédition de Laghouat, dirigée au moi de mai et juin 1844, Alger 1844.p49.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

مغدوري حسان، (2021)، **الأغواط في مدونات العسكريين الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر** ، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 12(العدد 1)، الجزائر : جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 286-298.